ابن الفارض ...
والفلسفة ...
وموريس بلوندیل

للأستاذ ادوار الجواهرجی

يعلم رواد الفلسفة أن الدكتور موريس بلوندیل ، الفيلسوف الفرنسى ، المتوفى أخيراً ، هو صاحب أحدث النظريات الفلسفية العصرية عن : « الإرادة » فقد كانت الإرادة الموضوع الوحيد الذى احتاز بل احتكر تفكيره وبحثه وتحليله وتنقيبه . وقد كتب عن الإرادة رسالته المشهورة تحت عنوان : « الفعل » .

ومن بين معانى الإرادة إنما المقصود هنا : مراد الإنسان أى بغيته أى مطلوبه

أما جوهر النظرية الواردة فى رسالة « الفعل » فينحصر فيما يلى :

يتولد الفعل من عدم التوازن بين المقدرة والإرادة ، لأن قدرتنا أقل من مطلوبنا ، بل شتان ما بينهما ! !

فالفعل يهدف إلى جعل هذا التوازن ويبطل إذا تمكن من تحقيقه .

إن فى هذا مبدأ لنوع من المنطق ، باطن للفعل ، يحدد ويعين لنفسه الغاية . ولما يشعر بعدم كفايتها يبحث عن غاية أكثر إرضاء له . ولكنه يبقى دائماً دون فائدة فى مجال الأشياء المعروضة علينا . لأن الإرادة مهما نالت من مستطاعاتنا فى الحياة الطبيعية بما فيها من : العلوم ، والفعل الفردى ، والفعل الاجتماعى ، والفعل الأخلاقى ، لا تجد فيها ما يكفيها ويشبعها ويرضيها ، لأنها تدرك أن نصيبها لم يتم بها ، وأن هذه الأشياء لا تمثل إذن إلا غايات جزئية متوالية معروضة عليها كوسائل أو كظروف لتحقيق نصيبها .

ومن هذا يكون القلق البشرى الذى نسقيه باستمرار الإرادة الغير مكتفية .

وحينئذ تكون الإرادة أمام أمرين :

أولا : إما أن تبقى على ما نتج من الاختبار وتظل عاجزة .

ثانياً : وإما أن تستسلم إلى ما هو خارج على العـــلم ويسميه أهل المعتقدات والأديان « الحياة الفائقه الطبيعية » حيث يبدو أن الله هو أصـــل ما يوجد من اللانهاية فى الإرادة ، ويكون اذن هو الغاية الوحيدة التى تستطيع أن تكفيها وتشبعها وترضيها . »

وتتفق هذه الفلسفة مع ما وصل إليه سيد الشعراء ، وفقيه الإرادة عمر ابن الفارض حين استدل إلى الحقيقة والحق بالتحليل والتنقيب فى الإرادة أى مراد الإنسان وبغيته ، ثم ضاح قائلا بل أقسم :

ومطلع أنوار بطلعتك التى ... لبهجتها كل البدور استمرت
ووصف كمال فيك أحسن صورة ... وأقومها فى الخلق منه استمدت
ونعت جـلال منك يعذب دونه ... عذابى وتحلو عنـــده قتلتى
وسر جمال عنك كل ملاحة ... به ظهرت فى العـالمين وتمت
وحسن به تسبى النهى دلنى عـلى ... هوى حسنت فيه لعزك ذلتى
ومعنى وراء الحسن فيك شهدته ... به دق عن إدراك عين بصيرتى
لأنت منى قلبى وغاية بغيتى ... وأقصى مرادى واختيارى وخيرتى

وقال أيضاً فى معنى اللانهاية البيت الوحيد الآتى الذى اعتبره الشاعر فتحا عظيما من الله عليه . وهذه هى اللانهاية التى تدركها وتتوق إليها الإرادة .

وعلى تفتن واصفيه بحسنه ... يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

فالإرادة تعتبر من أهم أبواب الفلسفة ، واذا كانت « أبكار المعارف » هى الدليل الأول على الروحانية فالإرادة « هى الدليل الثانى »

غير أن الإرادة لم تخلو ولم تسلم من الأعداء . فقد كان لها عدو قاتل فى شخص الفيلسوف الألمانى المتشائم شوبيناوير ، الذى اختتم طعنه فيها بقوله : ان الإرادة جحيم فى داخل الإنسان ، وأنها أفعى ذات سبعة رؤوس لا تعرف الشبع ، وأنها سبب ضلال الإنسان »

ولكن كما يقال فى المثل الفرنسى المعروف : « هذا كلام من لم ينظر ولم ير أبعد من أنفه » . لأن الإرادة ما دامت تحمل طابع اللانهاية أى متطبعة باللانهاية ومتعطشة إلى اللانهاية ، فهى خير سبيل وخير مرشد إلى صاحب اللانهاية وهذا هو ما رآه عمر بن الفارض وموريس بلوندیل .